الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

تحول جديد في الجو المصري — بين الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا

تحول جديد في الجو المصري

أخذ الجو يتحول في الأعوام الأخيرة بأسلوب لم نعهده من قبل ، فقد صار شتاء مصر عنيفاً جداً ، وصار صيفها أعنف ، وأصبحنا نتذوق الطعوم المختلفة للحياة الجوية على نحو ما كان يتذوق الآباء والأجداد قبل أجيال

والمنتظَر أن يكون لهذا التحول الجديد في الجو المصري تأثيرٌ يزيد في قوة الحيوية وقوة الشعور بالوجود ، فقد كاد اعتدال الجو في مصر يخلق ألواناً من البلادة ، وكاد يضعف الإحساس بتغيّر الفصول

والمنتظر أيضاً أن يكون لهذا التحول فضلٌ في التشويق لمعرفة الأجواء المختلفة بالديار المصرية ، فسيصير من المألوف أن تكون لنا مواسم في الجنوب أيام الشتاء ، كما صارت لنا مواسم في الشمال أيام الصيف ، وسيكون من الحتم أن نعرف الأقصر وأسوان كما نعرف الإسكندرية ودمياط

والواقع أن إقبال المصريين على مصايفهم الجميلة ليس إلا وثبة جديدة في تذوق الحياة ، فما أعرف أن في الدنيا مصيفاً يُشبه مصيف الأسكندرية ، ولا أعرف أن في الدنيا بقعة يتجمهر فيها الجمال كما يتجمهر في ذلك المصيف . والذي يقدر على قضاء أيام بالإسكندرية أو بور سعيد أو دمياط ثم يبخل على نفسه بذلك النعيم فهو من أعيان السفهاء !

صار الاصطياف بحمد الله من صميم التقاليد المصرية ، وصار من منهاج الحياة في مصر أن يدّخر الناس ما يعين على الاصطياف ، ولم تعد الشواطيء مقصورة على من يعرف فضلها من الأجانب ، فقد أضحت ملاعب مصرية تحت سيطرة الشبان المصريين ، وصار من السهل أن ترى من كبار الرجال من يرتاد تلك الملاعب في الضحى والأصيل

هل شهدتم ملاعب التِّنس فوق الشواطيء ؟

إنها مواكب من الحياة البهيجة تتهادَى في كل صيف ، وتشهد بأن مصر مُقبلةٌ على فتوّة مَرحة سيزدهر بها الشعر والخيال

في هذه اللحظة صلصل الهتّاف من الأسكندرية يحمل صوت الأستاذ محمد علي حماد محرر مجلة الشعلة ، وهو يستعجل مقالاً وعدته به عن الديوان الجديد للشاعر علي محمود طه فابتسمت وقلت : وحيُ الشاطيء هو الذي أثار العطف على الملاح التائه ، لَطَف الله به وهَداه إلى شاطيء الأمان !

إن مصر ديارٌ بحرية ، ديارٌ تحيط بها البحار من أكثر الجوانب ، وتجرى بها الأنهار في كل جانب ، ومع هذا تقلّ فيها الآداب البحرية والنهرية ، فما هذا الجمود !

إن أسلافنا عاشوا بأفضل مما نعيش ، فقد كانت في مدينة القاهرة مَشابه من مدينة البندقية ، يوم كانت القاهرة تموج بين الخلجان ، ويوم كانت الملاهي بتلك الخلجان في أصائل الجُمَع والآحاد تزعج رجال الدين فيُفتون بأن النزهة في السفائن حرامٌ لا حلال !

كانت حياة أسلافنا شعراً في شِعر ، وكان للنيل في حياتهم وجود ، ألم تسمعوا أنهم أحاطوه بطرائف من الأقاصيص ؟

ومع هذا رأينا من يقول بأن « عروس النيل » أسطورة خلقها العرب لا الفراعين ، وحجتُهم أنها لم توجد في غير الكتب العربية . فإن صح ما قالوه فالعرب أبلغ في الشعر والذوق ، لأنهم تخيلوا النيل فتى لا يعيش بلا عروس ، وتلك وثبة من وثبات الخيال .

في القاهرة حيٌّ اسمه « بركة الرطلي » ، فما تلك البركة في التاريخ ؟

نقل الدكتور عبد الوهاب عزام في « مجالس السلطان الغوري » أن وصلها بالخليج الحاكمي في أيام الفيضان كان يوجب إعداد عُرس تُزَفّ فيه نساء جميلات ، وأن السلطان الغوري قد استفتى الشيخ البلقيني فأفتى بأنها بدعة ، وكل بدعة ضلال[1]

ألا تكون عروس البركة صورة جديدة من عروس النيل ؟

والشيخ البلقيني كان من ظرفاء المشايخ ، وهو الذي قال

(١) الخليج الحاكمي هو الخليج المصري ، والتسمية الثانية جديدة

بأن الميت يُسأل فى القبر باللغة السريانية لا العربية ، وفى هـذا قال أحد الناظمين :

ومن عجيب ما ترى العينانِ أن سؤال القبر بالسُّـرياني
أتى بهذا شيخُنا البُلقَـيْني ولم أرهُ لغيرهِ بعَـيني

وقبر البلقينى معروف بالقاهرة ، وهو قريب من قبر الشعرانى ، عليهما أطيب الرحمات !

قال الأستاذ حماد وقد راعه أن يعرف أنى أكتب مقالاً فى ظهيرة هذا اليوم القائظ : فى مثل هذه اللحظة تكتب ؟

فقلت لأنها أنسب اللحظات لموضوع هذا الحديث ، فما كان أدبى إلا صورة من شعورى بالوجود

قال : متى تزورنا فى الإسكندرية ؟

قلت : أنا أقضى فى الإسكندرية عشرة أيام من كل أسبوع

قال : ولا نراك ؟

قلت : وهل أزور الإسكندرية لأراك ؟

فى الإسكندرية ذخائر وجدانية يعرفها من يمشى على قدميه من محطة الرمل إلى المحطة الفلانية ، وفي صحبته الروح التى أوحت رسالة « غناء وغناء » ، وهل كانت « جنّية الشاطىء » إلا مصدر نعيمى وعذابى ؟

روّاد الإسكندرية غرباء ولست فيها بالغريب ، فلى هنالك تلك الروح

ومن بيّنات الحب أنْ كان أهلُها
أعزّ على قلبى وعينىّ من أهلى

روّاد الإسكندرية غرباء ، أما أنا فاسكندرية دارى ، بفضل تلك الروح

أيجوز الارتياب في القوة الربانية ، ومن إبداعها ذلك التمثال من الجمال ؟

تبارك مَن هـذا فنُّه فى تحويل الأنوار إلى شخوص تصافحها القلوب !

إن إبداع الشمس والقمر والنجوم لا يدل على قدرة الله بأقوى مما يدل عليها إبداعه الفائق لتلك الروح ، بذلك اللطف الوهّاج

هى آية من آيات الله ، آيةٌ أعظم من البحر ومن السماء ، وأنضر من جميع ما فى الوجود

أيكون الله أراد أن يجزينى جميلاً بجميل ؟

أيكون الله أراد أن يجمل ثوابى فى الثناء عليه بخلق تلك الشواطئ الملاح ثواباً روحيًا يمثّله تفردى بالسيطرة على ذلك الروح المليح ؟

مَن كان له فى الأسكندرية رمال وأمواج ، فلى فيها أرواح وأضواء

فى هالة ذلك القمر أجد مؤلفاتى ومقالاتى وأشعارى ، وأجد حول كل سطر شروحاً تفضح المكنون من أسرارى ، وأجد حول كل حرف نيرانا أرّثتها أشواق ، فأومن بأن لله فضلاً عظيما فى وصل روحى بتلك الروح

كان من حظ الشعر أن يكون لى فى الأسكندرية مكان ، وأين الشاعر الذى يستطيع الإجادة وهو لم ير الأسكندرية فى الصيف ؟

يا مدينة أحلامى وديار هواى ، متى نلتقى ؟
وهل افترقنا حتى نفكر فى التلاقى ؟
وهل فارقتنى تلك الروح حتى أفكر فى اللقاء ؟
هى فى رحابى ولو مضيت لاستكشاف أقطار السماء

روح الشيخ رشيد

حوّل إلىّ سعادة الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق خطاباً وصل إليه من السيد عبد الرحمن عاصم بطرابلس الشام . وصاحب الخطاب يعترض على ما نشرناه من حديث دار بينى وبين الشيخ مصطفى حول تأثر الشيخ رشيد رضا بروح الشيخ محمد عبده ، وحول الدقة فى ترجمة الأستاذ الإمام ، رحمه الله

وأقول إن ما نقلته من حديث الشيخ مصطفى راعيت فيه الأمانة العلمية ، فلم أضف إليه أىّ حرف ، ولم أشُبْه بأى عدوان ، لأنى أعرف فضل السيد رشيد فى إحياء مآثر الشيخ محمد عبده ، ولأن هذا الرجل كان من أعزّ أصدقائى

إن لهذه المسألة وضعاً آخر ، وهو تحرى الصدق فى تقدير الرجال ، وما كان يجوز أن أطوى حديثاً للشيخ مصطفى يزن به الصلة بين روح الشيخ عبده وروح الشيخ رشيد ، مع العلم بأن الشيخ مصطفى حجة فى وزن هذين الرجلين ، لأنه تلميذ الأول

وزميل الثاني ، ولأنه معروف بكراهة التزيد على الناس

والذي عرفته وتحققته أن روح الشيخ رشيد شابته شوائب من العنف ، شوائب خلقها اتصاله بالمجتمع في نواحيه الصواخب ، فلم تكن عنده تلك البشاشة الروحية التي اتصف بها الأستاذ الإمام في جميع العهود

وإليكم النادرة الآتية :

— قبل أن أكتب هذه الكلمة رأيت أن أحادث جماعة من محبي الشيخ رشيد ، عساني أعرف من أحواله في التسامح الديني ما لم أكن أعرف ، وكانت النتيجة أن يقول فلان وهو رجل حصيف : كيف يجوز لسعادة مصطفى باشا أن يرتاب في تسامح الشيخ رشيد مع أن له حكاية تنقض ذلك الارتياب ؟

فما تلك الحكاية ؟

قال الأستاذ أسعد داغر للشيخ رشيد : أنا نصراني يحترم الفضائل الإنسانية ويرى أن محمداً آية في الكرامة الأخلاقية ، فكيف يجوز أن تُغلَق أبواب الجنة في وجهي ؟

— فأجاب السيد رشيد : ستدخل الجنة يا أسعد قبل كثير من فقهائنا

ذلك هو تسامح الشيخ رشيد في نظر ذلك الرجل الحصيف .

وأنا أرى في هذا التسامح دليلاً على التحامل ، التحامل على الفقهاء ، وكانت بينهم وبين صاحب المنار ضغائن وحقود

ولأجل أن نفهم هذه الحقيقة يجب أن نرجع إلى مقالين في رثاء الشاعر عبد المحسن الكاظمي ، المقال الأول في مجلة « الرسالة » بقلم الشيخ عبد القادر المغربي ، والمقال الثاني في مجلة المنار بقلم صاحبه السيد رشيد

في المقال الأول عطف ورفق ، وفي المقال الثاني قسوة وعنف ، فقد قال الشيخ رشيد في الكاظمي كلمات لا تليق ، وسلقه بقلم دونه بأس الحديد

— أكانت إهانة الكاظمي بتلك الصورة فرضاً يوجبه التاريخ ؟

وما الذي يعكر التاريخ الأدبي لو بقي الكاظمي كما صوره الشيخ عبد القادر المغربي ؟

الأمر كله يرجع إلى أن الشيخ رشيد عانى متاعب من معاصريه ، متاعب ثقيلة جداً ، فقد كان الناس يستكثرون عليه أن يتفرد بإعلان مآثر الشيخ محمد عبده والإفصاح عن آرائه الدينية والاجتماعية ، وكانوا يرون ظالمين أن الأمر لا يعدو المهارة في الاستغلال

من خطاب السيد عبد الرحمن عاصم عرفت أن فضيلة الشيخ محمد شاكر كتب إلى الشيخ محمد عبده يدعوه إلى كف يده عن رعاية الشيخ رشيد ، وأن الأستاذ الإمام أجاب :

« كيف أرضى بإبعاد صاحب المنار عني وهو ترجمان أفكاري ؟ »

وأنا أعرف الشيخ محمد شاكر جيداً ، فقد كان على جانب من العنف ، وكانت عداوته مُرة المذاق ، وكان يحارب خصومه في الرأي محاربة المستميت ، فمن المؤكد أن خصومته تركت في نفس الشيخ رشيد عقابيل

أما جواب محمد عبده فهو جواب محمد عبده ، جواب فلاح مصري شريف يؤازر أنصاره ولو تألبت عليهم الأرض والسماء

مضيتُ عصرَ يوم لتنسُّم الهواء بحديقة الجزيرة فوجدت الشيخ عبد الرحمن قراعة هناك ، وكانت الشيخوخة لا ترحم يديه من الارتعاش ، فدار بيني وبينه حديث وأحاديث ، وجاءت قصة الشيخ محمد عبده فقال :

— هل تعرف أن الشيخ عبده لم يُعزّ أحداً كما أعزّني ؟

— وكيف ؟

— لأني زُرته أيام اعتقاله بعد انهزام الثورة العرابية

— ولتلك الزيارة هذه القيمة ؟

— أنا وجهت إليه هذا السؤال فكان جوابه أن هذه التفاتة لا ينساها كرام الرجال

ماذا أُريد أن أقول ؟

زيارة عابرة للشيخ محمد عبده في معتقله تُقرّر في نفسه هذا الحق ، فكيف يكون نصيب الشيخ رشيد من نفسه وهو يرفع العَلَم لآرائه في كل مكان ؟

أترك هذا وأذكر أن قول الشيخ مصطفى بأن تاريخ الشيخ عبده لم يدوّن على الوجه الصحيح ليس معناه اتهام الشيخ رشيد ، ولكن معناه أن تاريخ الشيخ عبده رُوعيَتْ في تدوينه أشياء من الاعتبارات السياسية ، وهي اعتبارات يراعيها أكثر الباحثين في التاريخ الحديث ، وعلى الأستاذ مصطفى باشا أن يحررها بقلمه إن تناسى أنه من السياسيين !

أما قول السيد عاصم بأن السيد رشيد لم يجد من يترجم له بعد أن يموت فجوابه حاضر : ذلك بأن الشيخ رشيد رضا ترجم لنفسه بنفسه ، ولم يمت إلا بعد أن أن كتب سطور حياته في صفحات الخلود .

زكي مبارك